المحاضرة الخامسة والسادسة- مقرر: الأنثروبولوجيا الثقافية ف٢- السنة الأولى- قسم علم الاجتماع

د. أميرة عرقسوسي

<u>عنوان المحاضرة: الاتجاهات البحثية (المناهج) في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية</u>

منهج البحث: هو الطريقة العلمية المنظمة التي يعتمدها الباحث عند دراسته لظاهرة أو موضوع ما، وهي التي تساعد الباحث لاحقاً في الوصول إلى تعميمات نظرية وقوانين عن الظاهرة المدروسة. ولا يمكن لأي دراسة علمية أن تقوم دون وجود منهج يحدد مسارها ويظهر تساؤلاتها وفروضها، وطرق التحقق من صحة هذه الفروض والإجابة على التساؤلات.

وبذلك يعد منهج البحث الركيزة أو العامود الفقري في أي دراسة علمية.

وقد كانت البدايات الأولى لدراسة الثقافات الإنسانية على يد الأنثروبولوجيين وذلك عند دراستهم للمجتمعات البدائية وما قبل الكتابية، حيث تم التركيز على هذه المجتمعات من خلال دراسات شمولية للأنظمة الاجتماعية. وقد تم تطوير مناهج بحثية ارتبطت بالأنثروبولوجيين، كما تم ابتكار أدوات منهجية استطاع من خلالها الباحثين تحليل الثقافة الإنسانية وعناصرها ومحتواها في المجتمعات، حيث كشفت العديد من هذه الدراسات على جوانب دقيقة من حياة الأفراد داخل المجتمع المدروس.

إذاً بدايات الأنثروبولوجيا انطلقت بكونها علم بالتركيز على المجتمعات البدائية والبسيطة والقبلية، وخرجت لاحقاً من هذا الإطار وقامت بالتركيز على دراسة المجتمعات الحديثة والصناعية المتطورة، وأخذت اتجاهاً نظرياً ونهجاً متسعاً ومختلفاً، فلم تعد تهتم فقط بدراسة الثقافات البدائية، بل اتجهت نحو المدنية والمجتمع المعقد وذلك لأسباب متعددة:

قد يكون أولها أن العديد من هذه المجتمعات البسيطة قد اندمجت مع المدينة في كثير من حالاتها، إضافة إلى أن المجتمعات البدائية قد أشبعت دراسة، حيث لم يكن هناك أياً من هذه المجتمعات لم تقوم الأنثروبولوجيا بدراسته، وبالتالي اتجهت الأنثروبولوجيا إلى دراسة المجتمعات الحديثة والمتقدمة والمعقدة.

إن هذا الاتجاه الحديث في دراسة المجتمعات المعاصرة جعل من الأنثروبولوجيا أيضاً تستخدم وسائل وأدوات منهجية مختلفة. فقد طورت الأنثروبولوجيا من مناهجها البحثية واعتمدت على طرق وأدوات منهجية بحتة من تخصصات أخرى وذلك بحكم كونها أكثر التخصصات شمولية في دراسة الإنسان، وكذلك من أكثرها صلة بالعلوم الأخرى. وقد طورت الأنثروبولوجيا أيضاً أساليبها الحثية بما يتوافق مع تخصصاتها المختلفة والتي تميز كل فرع من فروعها بأطر وأساليب منهجية محددة.

فالأنثروبولوجيا كبقية العلوم الأخرى تتميز بمناهج بحث خاصة فيها، وتتعدد هذه المناهج وتختلف أنواعها بسبب تعدد فروع الدراسات الأنثروبولوجية.

فالأنثروبولوجيا تحتوي على دراسة التطور البيولوجي والفيزيقي من ناحية، وعلى دراسة تطور الجوانب المادية وغير المادية للثقافة الإنسانية من ناحية أخرى. وكذلك تركز في جانب آخر على الثقافة الإنسانية في محيطها الاجتماعي، الأمر الذي أدى إلى بروز العديد من مناهج البحث الأنثروبولوجية.

وسيتم التركيز في هذه المحاضرة على الاتجاهات البحثية في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية فقط، والتي يتمثل أبرزها في الآتي:

<u>أولاً- الاتجاه المقارن:</u>

وهو الاتجاه الذي يتطلب إجراء مقارنات بين مجتمعات عديدة لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف في درجة ونوعية الثقافة والبناء الاجتماعي.

بمعنى آخر: مقارنة الثقافات والمجتمعات الإنسانية المختلفة وما يحمله كل من هذه المجتمعات أو الثقافات من سمات أو أوجه تشابه أو اختلاف.

فيحاول الأنثروبولوجي من خلال هذا الاتجاه البحثي الكشف عن سمات التشابه والاختلاف بين المجتمعات من خلال مقارنتها بهدف رسم استنتاج عام بخصوص المجتمع وما يحتويه من ثقافات متعددة.

ولقد أكد كل من الأنثروبولوجي الأمريكي (هويل) والأنثروبولوجي البريطاني (راد كليف براون) على ضرورة الأخذ بالمنهج المقارن في الدراسات الأنثروبولوجية، لأنه المنهج الذي يميز علم الأنثروبولوجيا عن بقية العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

وقد بدأ استخدام هذا الاتجاه في إطار دراسات الأنثروبولوجيين للمجتمعات البدائية البسيطة لتحقيق هدفين:

الهدف الأول: هو عقد مقارنات بين مجموعة من المجتمعات البدائية البسيطة لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بين أنظمتها الاجتماعية، وإظهار أثر البيئة الطبيعية والثقافية في تحديد مستويات التشابه والاختلاف في هذه المجتمعات.

الهدف الثاني: هو عقد المقارنات بين المجتمعات البدائية البسيطة من جهة، والمجتمعات المعقدة المتطورة من جهة أخرى، من أجل تقديم فهم علمي لعملية تطور الثقافة الإنسانية ونظمها الاجتماعية من الأشكال البدائية إلى الأشكال المعقدة.

وإذا كانت دراسة (سيلجمان) عن القبائل النيلية الوثنية في السودان تمثل الهدف الأول للدراسات الأنثروبولوجية عن المجتمعات البدائية، فإن كتاب ((المجتمع القديم)) للأنثروبولوجي (لويس مورغان) يمثل الهدف الثاني.

وفيما اختلفت أهداف استخدام المنهج المقارن عند الأنثروبولوجيين، إلا أن الغاية المرجوة من استخدام هذا المنهج هو تقديم تعميم أو نظرية عامة من شأنها أن تفسر لنا الثقافة الإنسانية وكيفية تطورها.

والجدير بالذكر أن المنهج المقارن في الدراسات الأنثروبولوجية يعتمد بشكل عام على أساس فكرة التواتر: أي تكرار حدوث الظواهر الاجتماعية المتشابهة في مجتمعات مختلفة، وهذا معناه أن هدف الأنثروبولوجيين هو التوصل إلى قوانين وتعميمات نظرية (كما ذكر مسبقاً) من شأنها أن تشرح لنا سبب حدوث الظواهر الاجتماعية، وذلك لأن مجرد تكرار حدوث الظاهرة في مجتمعات مختلفة والتي لم تخضع للتواصل التاريخي، يفرض على العقل القول بأن وراء هذا التواتر قانوناً عاماً يحكم عملية تكوين هذه الظاهرة وتطورها.

ثانياً- الاتجاه الأثنوغرافي:

يقوم هذا المنهج على تقديم وصف دقيق ومنظم للجماعات الإنسانية وثقافاتها ونظمها الاجتماعية، بما فيها أنظمة المعتقدات والزواج والقرابة والاقتصاد والسياسة والأسرة...إلخ.

ويركز الباحث الأثنوغرافي في دراسته على وصف مجتمع محدد، حيث يقدم لنا معلومات مكثفة عن طبيعة هذا المجتمع ونظمه الاجتماعية. وهذا معناه أن الباحث الأثنوغرافي لا يهدف في دراسته إلى تقديم مقارنات فيما بين المجتمعات الإنسانية

المختلفة لإظهار الأوجه المشتركة وغير المشتركة فيما بينها، بل يقدم وصفاً خاصاً بهذه المجتمعات والتي من الممكن أن يستخدمها ضمن إطارها المقارن.

ويعود تاريخ الدراسات الأثنوغرافية (الوصفية) إلى فترة ما قبل عصر الميلاد، فقد كان المؤرخ الإغريقي (هيرودوت) هو أول من استخدم هذا المنهج في عام ٥٠٠ق.م، عندما درس قبائل روسيا ومجتمع مصر القديم، ثم تبعه بعد ذلك الشاعر اليوناني (لوقريطس) عام ٥٥٠ ق.م، الذي قدم دراسة وصفية عن تطور الثقافة الإنسانية من حالتها البدائية حتى وصولها إلى حالة الارتقاء والتمدن.

كما يعد كتاب ((المقدمة)) للعلامة العربي (ابن خلدون) من أهم الدراسات الأثنوغرافية التي قدمت وصفاً علمياً ودقيقاً عن جماعات البدو وطبيعة نظمهم الاجتماعية وطرائق معيشتهم.

كذلك نذكر دراسة الرحالة (المسعودي) والتي ضمنها في كتاب عنوانه ((مروج الذهب ومعدن الجوهر) ودراسة الرحالة (ابن بطوطة) التي ضمنها في كتاب ((تحفة الأنظار في عجائب الأسفار)).

وتعد هاتين الدراستين من أهم الدراسات الأثنوغرافية (الوصفية) التي منحتنا قدراً واسعاً من الفهم عن الثقافات الإنسانية المختلفة.

لقد شكلت هذه الدراسات الوصفية اللبنة الأولى في تكوين علم الأنثروبولوجيا، وقد استمر الأنثروبولوجيين في اعتماد المنهج الأثنوغرافي في دراساتهم حتى يومنا هذا.

وقد طور علماء الأنثروبولوجيا في مطلع القرن العشرين المنهج الأثنوغرافي وجعلوا له أساسيات لابد من اتباعها عند إجراء الدراسات الأنثروبولوجية، ومن أهم هذه الأساسيات التي يقوم عليها المنهج الأثنوغرافي المعاصر هو أن تكون الدراسة قائمة على منهجية البحث الحقلي، والذي يقصد به شرط إقامة الباحث بين أفراد المجتمع المدروس لفترة زمنية محددة، ومعرفة لغة أفراد هذا المجتمع معرفة وافية، وتعود أهمية الإقامة ومعرفة لغة أفراد المجتمع المبحوث إلى أنه من غير الممكن تقديم وصفاً موضوعياً عن مجتمع الدراسة إن لم يكن الباحث قادراً على التواصل اللغوي مع أفراد هذا المجتمع، كما أن معرفة الباحث لطبيعة ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية لا يمكن أن تتم من خلال المشاهدة العابرة، لهذا وجب على الباحث الأثنوغرافي الإقامة في المجتمع المدروس.

ونخلص مما سبق إلى أن الدراسة الأثنوغرافية تعتمد على الدراسة المركزة لمجتمع ما، لأنها تزود الباحث بكل العناصر الثقافية التي يقوم عليها مجتمع الدراسة.

ويعد الأنثروبولوجي البريطاني (راد كليف براون) من الرواد الأوائل الذين قاموا بدراسات حقلية أثنوغرافية وذلك من خلال دراسته لشعوب جزر الاندمان (الواقعة في شمال المحيط الهادي) في الفترة ما بين ١٩٠٦- ١٩٠٨.

أيضاً تعد دراسة (مالينوفسكي) عن شعوب جزر التروبرياند (الواقعة شرق غينيا الجديدة) من أهم الدراسات الحقلية الأثنوغرافية. وقد قضى (مالينوفسكي) في دراسته هذه أربع سنوات (١٩١٤- ١٩١٨)، حيث عايش التروبرياندیين وعرف لغتهم المحلية معرفة تامة.

أيضاً من الدراسات الأنثروبولوجية الهامة التي طبقت هذا المنهج، دراسة (ايفانز برتشارد) لقبائل النوير السودانية في عام ١٩٤٠، ودراسة (فورتيز) لقبائل التلاسي النيجيرية في عام ١٩٤٥.

ولعل من أهم الصفات التي تتميز بها الدراسات الأثنوغرافية هو أنها تعتمد في وصفها على تقديم فهم شمولي/ كلي للمجتمع المدروس، فالعناصر الثقافية لا تدرس كل منها بمعزل عن الآخر، كما أن النظم الاجتماعية لا يمكن تفسير كل منها على حدة وبمعزل عن بقية النظم الأخرى. على العكس من ذلك نجد أن الثقافة بكافة عناصرها ونظمها الاجتماعية يتم دراستها دراسة متكاملة، وذلك بسبب ارتباط كل جزء منها بالآخر ارتباطاً وثيقاً. كما أن العلاقة بين الثقافة والمحيط البيئي (الايكولوجي) يجب أن تخضع للدراسة والتحليل، لأن الإنسان يؤثر ويتأثر ثقافياً بالمحيط الذي يعيش فيه.

وتعتمد الدراسات الأثنوغرافية على عملية الملاحظة العلمية لثقافة وأنظمة المجتمع المدروس.

وللملاحظات الأثنوغرافية في الأنثروبولوجيا نمطين أساسيين، هما:

١- **الملاحظة المباشرة:** تتم الملاحظة المباشرة عن طريق اندماج الباحث في المجتمع نفسه، حيث يقوم بمخالطة أفراد هذا المجتمع ومجالستهم لكي يتعلم لغتهم ويتعرف على طبيعة حياتهم الاجتماعية وسلوكياتهم الثقافية. والحقيقة أن هذا النوع من الملاحظة يمنح الباحث القدرة الكافية على دراسة ثقافة هذا المجتمع ونظمه الاجتماعية، ومن ثم تقديم وصف علمي متكامل عن هذا المجتمع.

وقد اعتمد على الملاحظة المباشرة العديد من مؤسسي الأنثروبولوجيا، أمثال (راد كليف براون، بريتشارد، مالينوفسكي، فرانز بواز، بندكيت، مارجريت ميد) وغيرهم من الأنثروبولوجيين الذين اعتمدوا على اندماجهم بالمجتمع المدروس واستخدام وسيلة الملاحظة المباشرة في دراساتهم.

٢- **الملاحظة غير المباشرة:** تتم هذه الملاحظة من خلال الرجوع إلى مصادر أخرى للحصول على المعلومات الأثنوغرافية، وذلك عن طريق الاعتماد على آراء ومؤلفات العلماء والباحثين ممن سبق لهم إجراء دراسات مجتمعات إنسانية محددة، أو الاعتماد على ملاحظات ومشاهدات الغير من الرحالة والمسافرين. أي اعتماد الباحث على المصادر والوثائق والروايات التي تتعلق بموضوع الدراسة.

ومن الذين استخدموا وسيلة الملاحظة غير المباشرة، نذكر: (ادوارد تايلور ولويس هنري مورجان) اللذان قدما وصفاً أثنوغرافياً للمجتمعات المدروسة في مجلدات ضخمة من واقع ما حصلوا عليه من وثائق وسجلات وآراء ووثائق مكتوبة.

ثالثاً- الاتجاه التجريبي:

ظهر هذا الاتجاه كردة فعل على النظريات التي ظهرت بالقرن التاسع عشر، والتي صنفت الجماعات البشرية وفق تفرقة عنصرية بحتة. ففي تلك الفترة ظهرت العديد من الكتابات التي تقول بامتياز عرق على آخر أو صفاء جنس بشري على آخر، على سبيل المثال، هناك كتابات قالت بأن الجنس الأوربي الأبيض أكثر حضارة وذكاء من بقية الشعوب الأخرى.

وحتى يتم دحض هذه الآراء العنصرية، لجأ العديد من الأنثروبولوجيين إلى استخدام المنهج التجريبي، الذي يقوم على اختبارات علمية دقيقة للتحقق مما إذا كانت هناك فوارق جوهرية في الصفات العقلية والنفسية والمزاجية (وراثية أو مكتسبة) يمتاز بها جنس بشري عن جنس آخر. وقد انتهت هذه البحوث التجريبية إلى تأكيد أنه لا توجد أية فوارق في الذكاء أو المشاعر بين جنس وآخر، وأن الفروق وإن وجدت فهي ليست إلا انعكاسات للبيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الإنسان، وهذا معناه أن هذه الفروقات لا تتصل مطلقاً بعوامل بيولوجية أو وراثية، إنما ترد إلى محددات اجتماعية وثقافية بيئية.

ومن أشهر الدراسات التجريبية في الأنثروبولوجيا هي الدراسة التي قامت بها العالمة (روث بندكت) والتي بينت ما يسمى بنسبية الأنماط الثقافية في المجتمعات

البشرية، وتعلل (بندكت) هذه النسبية الثقافية بالدور الذي تلعبه البيئة الجغرافية والاجتماعية والأسرية في تشكيل سلوكيات الأفراد واختلاف هذه السلوكيات من مجتمع إلى آخر،، ولكي تؤكد صحة ما توصلت إليه، قامت بدراسة قبيلتين (الزوني والكوكيوتل) من قبائل الهنود الحمر لمعرفة أنماط السلوك المتبعة عند هاتين القبليتين، وفيما إذا كانتا تتشابهان أو تختلفان في تلك الأنماط السلوكية.

وقد توصلت (بندكت) في دراستها هذه إلى أنه بينما يتميز أفراد قبيلة الزوني بالهدوء والتآلف، فإن أفراد قبيلة الكوكيوتل يمتازون بالانعزالية والتطرف والتنافس.

وقد أرجعت (بندكت) هذه الفروق في أنماط السلوك لدى هاتين القبيلتين إلى التأثر بالنماذج الثقافية العامة المتبعة في كل قبيلة، واختلاف وسائل التربية تبعاً لاختلاف تلك المناهج.

والجدير بالذكر أن الاتجاه التجريبي ارتبط بشكل كبير بالاتجاه المقارن، فالمقارنة التجريبية كانت الأساس في هذه الاتجاه.

انتهت المحاضرة

دمتم بخير